

الفروق السيكولوجية

بين الأجناس

(RACES)

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

تمهيد

قصدت بهذا التمهيد أن أقدم بحالة عامة عن مشكلة الأجناس للبشرية والمفاضلة بينها، وألا أتعرض للبحوث العلمية التي أجريت منذ أواخر القرن الماضي لمعرفة الفروق بين الأجناس. وقصدت أيضاً أن أجمل موضوع اليوم ذا صبغة تاريخية اجتماعية حتى أريح القارئ قليلاً من مطالعة الحقائق العلمية الجافة، ولكنني إن أعفيت هذا الأسبوع من عرض الحقائق العلمية التجريبية فلن أعفيه منها في الأسابيع القادمة

ومشكلة للفروق الجنسية مشكلة قديمة كقدم آدم . لا بل

آخر غير قابيل، إنه شيء غامض يحاط بالسر ...

وتهدد قابيل نهدة الحق وظل يتبع أخاه النظر يسمى إلى الكوخ يجسمه للطويل المروق والماشية تسمى من أمامه هذا الإنسان الغريب التامض لم لا يسبر غوره ويقبس قوته إليه؟

... ورويدا رويدا نزل للظلام؛ ورويدا رويدا امتد الزمن به.

فقام أخيراً وقد أزمع أمراً

لقد وجد ميداناً جديداً تبرز فيه قوته. ولقد كان للظلام حليفه هذه المرة، لأن قابيل لم يستطع أن يبلغ مأربه إلا في للظلام؛ ومضى الليل إلا أقله، وبينما كان آدم وحواء ناعمين، وقف قابيل خلف أخيه، ثم رفع يده وهوى بها، فسقط هاويل، دون أن يتبها لهذه المفاجأة، لأن أخاه استمان بها كما استمان بالظلام! وهكذا استطاع قابيل أن يجرب قوته من جديد وقد نجح في ذلك

وبعد، أفقدون لم لا يأكل الناس بعضهم بعضاً؟ ذلك لأنهم يجدون ما يأكلون

« م . رهبة »

إنها تبدأ به، وبالخلاف بينه وبين إبليس اللعين، فإنه لم يشرح من إعلان احتقاره للجنس البشري حين أبي أن يسجد لآدم كما أمر به. فقال الله تعالى: « ما منمك أن تسجد لآدم خلقت يدي! أستكبرت أم كنت من الدالين؟ قال: أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين » ومن هذا اليوم ظهر الخلاف بين الجنس للناري والجنس الطيني، وهو خلاف جر مصائب على إبليس ومن تبعه، وعلى آدم وذريته من بعده، ولا يزال مثل هذا الخلاف الجنسي مبعث الحن بين بني آدم أنفسهم

ثم هبط آدم إلى الأرض وتفرق أبنائه شعوباً وقبائل، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، وبعثت صلهم بأبيهم الأول، فتناقصوا وتحاسدوا، وودعت بينهم المداوة والبنضاء، وذهب كل شعب يُبدلُ بَعْدَهُ وعُدده، وحضارته وثقافته، ويفخر على الشعب الآخر، ويميره قلة للمديد وتأخر الحضارة. وكان ما كان مما حفظه لنا التاريخ والكتب المقدسة وما لم يحفظ

أقام بنو إسرائيل في مصر القديمة، وفلحوا الأرض، ورفعوا البنين، وكثر عددهم، وقوى ساعدتهم، وأصبحوا ذوى نفوذ وسلطان. فغضب فرعون ومن معه، ونظروا لهم شراً واحتقاراً واستمبد المصريون بني إسرائيل بمنف، وصبروا حياتهم بقسوة، واستمبدوم واستخدموم في الطين واللين، وفي كل عمل في الحقل. وكان كل عمل مملوء بتأثير الضغط والعضف...^(١) ولم يكن صرّفتح بالين جانباً مع الإسرائيليين من سلفه رمسيس الثاني، فأذاقهم الأحرار لالسبب إلا لأنهم غير مصريين، ومن جنس أجنبي، حتى إذا بلغ بهم اليأس مبلته جاءهم موسى بمصاه، فأقتدم من جناية جنسهم عليهم، ولاق صرّفتح حتفه شر لقاء

ثم سار للتاريخ سيرته في الشرق والغرب، فظهر الأخرين بحضارتهم وفلسفتهم وآدابهم، تلك الحضارة الإغريقية التي يعزى إليها — وإلى الرومانية أيضاً — فضل النهضة العلمية الأوروبية وحسب الأخرين أنهم شعب مقدس لا يصح أن يتزاج مع غيره، ولا أن يختلط غيره به^(٢). وسماوا غيرهم من الشعوب محجياً ووحشياً. ولم يذكروا أن حروفهم الأبجدية إنما كانت عارية فينيقية، وأن مبادئهم الفلسفية نشأت في مصر. فتمصّبوا

(١) سفر الخروج الاصحاح الأول الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة

(٢) انظر جمهورية أفلاطون

اللغات . ونظروا إلى الموالى وأجناسهم نظرة احتقار وازدراء . وكانت هذه سياسة خاطئة أثارت حروباً جدلية شعواء ، وكرهت الأجناس غير العربية — ولا سيما الفرس — في حكم الأمويين فأخذوا يتلمسون الفرص للثورة والخروج على الولاة ، فانضموا إلى الخوارج والشيمية ، وآزروا دعاة بني العباس ، فكان لهم النصر ولم تكن هذه المفاضلة الجنسية بين العرب والفرس فقط ، بل كانت بين العرب أنفسهم عدائين وخطائين في الشرق وفي الأندلس . وكانت الليقطة الشعوبية (في بلاد فارس) أيام حكم العباسيين ، هي التي سهلت وجود تلك الدويلات التي مهدت لروال الخلافة

وقد أسرف الشعوبيون في الحط من شأن العرب ، فرمومم بالتأخر ، وأنه لم يكن لهم ملك يجمع سوادهم ، وبضم قاصيهم ، وينهى سفهمهم . ولم تكن لهم قط نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة ، إلا ما كان من الشعر ، وقد شاركهم فيه المعجم . ورامم ابن خلدون بالتوحش وتخريب الماصر ، واستباحة أموال الناس تهباً ومغزماً

وفي أوروبا استمرت الحروب الجنسية أثناء القرون الوسطى بين اللقوط والوندال ، وبين الجرمان والغال ، وبين السكسون والسكت ، وبين الاسكتلنديين والإنجليز . وهذه الحروب وإن كان بعضها للنزوة والفتنة إلا أن الجنسية كانت تشملها ، لأن الجنسية أو العصبية كانت دائماً المامل المشترك بين أفراد الفريقين المتحاررين

وفي أوروبا الحديثة شاعت نظرية الجنس الأبيض والأجناس الملونة Coloured races ، واعتقد العامة — والمعلمون أيضاً — أن الأجناس الملونة أخط من الجنس الأبيض في الذكاء والاستعداد الفطري للانتاج ، والاستعداد لتاق الحضارة . ولعل الذي ساعد على انتشار هذه النظرية الحقيقة المائلة ، وهي سيادة الجنس الأبيض الأجناس الملونة

وفي أمريكا — بلاد الديمقراطية — نجد الزواج في ولايات الجنوب موضع احتقار مواطنيهم للبيض ، وهذا بالرغم من تفوقهم في الزراعة والصناعة والرياضة ثم ما هي تلك الحى الجنسية الطائشة التي عبت بمقول العلماء والساسمة من النازيين فألقوا الكتب ووضعوا القوانين ليثبتوا

ضد فيرمم من الأجناس ، ودعومم برابرة . وكانت كلمة Barbaros أول ما ظهرت ظهرت في لغتهم^(١) ، فأطلقوها على الرومان جيرانهم ، لأنهم كانوا من جنس غير جنسهم ، ولأن لغتهم اختلفت عن لغتهم ، ولأنهم كانوا دونهم في الحضارة والثقافة ، ولم تلبث هذه للكلمة أن دخلت لللاتينية فاستعملها الرومان بدورهم ، وأطلقوها على الشعوب الأوربية التي كانت تتأخمم كالصقلب والسكت والجرمان . وهكذا اعتبر الرومان — الذين كانوا يسمون برابرة — كل من لم يدخل ضمن نفوذ الإمبراطورية الرومانية بربرياً لأنه غير متحضر ، ولأنه من جنس دون الرومان

لم تكن الحال في بلاد العرب قبل الإسلام بأحسن منها عند الأمم الأخرى ، فبا الرغم من أن العربي يمتز بجنسه العربي كانت المنافسة بين عرب الجنوب وعرب الشمال تصل إلى العداة والقتال ، بل كانت الحروب بين المدائنين أنفسهم لا تطفأ لها نار . وكان التصيب للقبيلة — التي هي الجنس بمعنى ضيق — من أهم أسباب هذه الحروب . وكان الفرد من البطن يفخر على ابن عمه من البطن الآخر بنبل أسرته وكرم محمته . وظل أثر ذلك إلى الإسلام . وها هو ذا جرير يهجو نعيمياً بقوله :

ففض الطرف إنك من نعيم فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
مع أن كلاباً ونعيمياً كلاهما ينتمى إلى أصل واحد هو ماصر ابن صعصعة الموزان

ما كان الإسلام دين تصيب أو جنسية . فقد كان الناس فيه سواسية كأسنان المشط . ولم يكن بين المسلمين فضل لعربي على مجمي إلا بالقوى . وقد حافظ الخلفاء الراشدون على هذه المبادئ السامية ، فلم ينظروا إلى الشعوب المفتوحة نظرة لتغالب القوى ، ولم يحطوا من شأن الأجناس التي خضعت لهم . بل لقد كان أول الشروط التي قدمها عمرو بن الماصر إلى مقوقس مصر هو « إما دخلتم في الإسلام ، فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا » . غير أن النمرة العصبية القديمة بشت في عهد الأمويين الذين اعتقدوا أن العرب هم أفضل الأجناس ، وأن لغتهم أرق

(١) أصل كلمة Barbarian عند الاغريق القدماء الأجنبي . ومنها كلمة بربر لسكان شمال أفريقيا . ويزعم بعض المؤرخين أنها من وضع العرب عند فتحهم لهذه البلاد ، والحقيقة أن الكلمة كانت مستعملة قبل الفتح العربي . فقد وجد في النقوش المصرية القديمة التي يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٠٠ و سنة ١٣٠٠ ق م كلمتان هما : بارابارا ، وباراباراتا ، وكل منهما اسم قبيلة من سكان ليبيا